المحاضرة الثامنة: الفلسفة والحضارة

1/مفهوم الحضارة

يُعد مفهوم الحضارة من أكثر المفاهيم تعقيدًا وتنوعًا في الفكر الإنساني، إذ لم يتفق الفلاسفة والمفكرون على تعريف موحد لها، بل تتعدد الرؤى بحسب الزاوية الفلسفية أو التاريخية أو الثقافية التي يُنظر منها إلى الحضارة.

لغوياً، ترتبط كلمة "حضارة" بالجذر (ح-ض-ر)، الذي يعني الحضور والاستقرار، وتقابلها في المعنى "البداوة" التي تعني الترحال والتنقل، فالحاضر هو ساكن المدن والقرى الذي اتخذ قراراً ومقراً دائماً، هذا المعنى اللغوي يفتح الباب أمام الدلالة الاصطلاحية للحضارة، التي تنبثق أساساً من حياة الحضور والاستقرار.

اصطلاحاً، يُنظر إلى الحضارة على أنها النتاج الشامل والمتراكم لأمة من الأمم. وقد عرّفها ول ديورانت بأنها "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي"

في سياق الفكر العربي ، ربط ابن خلدون الحضارة بـ "تَفَنُّن في الترف وإجادة لأحواله، والتكلف للصنائع"، معتبراً إياها ثمرة طبيعية للاستقرار الحضري، وبذلك، ركز ابن خلدون على الجانب المادي والعمراني كنتيجة للتحضر.

أما في الفكر المعاصر، فتوسعت الرؤية، حيث اعتبرها مالك بن نبي "مجموعة العوامل الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع أن يوفر لكل فرد الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره"، بالنسبة لابن نبي، فإن الحضارة تقاس بمدى تحقيق الإنسان لحياة كريمة، وهي في جوهرها نتاج "فكرة" مطبوعة على مجتمع للدخول في التاريخ.

تُعرّف الحضارة غالبًا بأنها مرحلة متقدمة من التطور الاجتماعي والثقافي للبشرية، تلي مرحلة البداوة والهمجية، وتتميز بوجود نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية معقدة. يرى بعض المفكرين أن الحضارة هي مجموع التقدم المادي والروحي الذي يحققه الإنسان عبر التاريخ، وتشمل الإنجازات التقنية، والتنظيم الاجتماعي، والقيم الأخلاقية، والفنون، والعلوم.

من جهة أخرى، هناك من يميز بين الحضارة والثقافة، حيث تُعتبر الحضارة الجانب المادي والتنظيمي للحياة الإنسانية، بينما تمثل الثقافة القيم الروحية والفكرية والأخلاقية. ويذهب بعض الفلاسفة إلى أن الحضارة هي نتاج تفاعل الإنسان مع بيئته عبر التاريخ، وتتشكل من خلال تراكم الخبرات والمعارف والقيم.

2/مقومات البناء الحضاري

قدم المفكر الإسلامي مالك بن نبي (1905-1973م) إحدى أبرز النظريات التي حددت مقومات قيام الحضارة، مؤكداً أن قيمها تُبنى ولا تُستعار، ويرى بن نبي أن الحضارة تنتج عن تفاعل ثلاثة عناصر أساسية، تُعرف بـ "المركب الحضاري": وهي الإنسان والتراب والزمن.

ووفقاً لنظرية بن نبي، فإن التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة لا يكفي وحده، بل يحتاج إلى "الفكرة الروحية" (الدين) كشرارة توقظ هذه العناصر وتوجهها نحو البناء، لتصبح المعادلة: الحضارة = (إنسان + تراب + زمن) + الدين/الفكرة الروحية.

3/النظريات المفسرة لنشوء وتطور الحضارات

شغل سؤال نشأة الحضارات وتطورها واندثارها بال العديد من المفكرين، ومن أبرز النظريات التي تناولت هذا الجانب:

نظرية ابن خلدون (الدورة الحضارية)

يرى عبد الرحمن بن خلدون (1332-1406م) في نظريته أن الحضارة تمر بدورة حياة تبدأ من البداوة ثم تتطور إلى الحضر (العمران). الحضارة في نظره هي ذروة ازدهار العمران، لكنها تحمل في طياتها بذور فنائها.

•**عوامل التحضر:** الانتقال من البداوة (التي تتميز بالخشونة والعصبية القوية) إلى الحضر.

•**آلية الانهيار:** الترف في الحضر يؤدي إلى ضعف العصبية (الرابط الاجتماعي) وتدهور الأخلاق، مما يؤدي إلى الفساد وانهيار العمران وانتقال الدورة إلى أمة أخرى.

نظرية أرنولد توينبي (التحدي والاستجابة)

قدم المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي (1889-1975م) نظريته الشهيرة "التحدي والاستجابة"، ويرى أن نشأة الحضارات وتطورها لا يعود إلى عوامل جغرافية أو عرقية، بل إلى مبدأ الاستجابة الإبداعية لتحدي صعب.

•**عوامل التحضر:** التحدي (بيئي، اجتماعي، عسكري) هو المحفز، والاستجابة هي الفعل الإبداعي الذي يقوم به "الأقلية المبدعة" ويدفع المجتمع للنمو.

•**آلية الانهيار:** فشل المجتمع في إيجاد استجابة ناجحة لتحديات جديدة يؤدي إلى التدهور والاندثار.

نظرية أوزوالد شبينجلر (الكائن الحي)

شبه الفيلسوف الألماني أوزوالد شبينجلر (1880-1936م) الحضارة بالكائن الحي الذي يمر بمراحل طبيعية: الولادة، والنمو، والنضج، والشيخوخة، والموت، ويرى أن كل حضارة لها "روح" خاصة بها، وأنها لا تستطيع أن تتجاوز هذه الدورة الحتمية، وأن الحضارة الغربية قد وصلت إلى مرحلة الشيخوخة والاضمحلال.

4/علاقة الفلسفة بالحضارة

الفلسفة كـ "روح" للحضارة

إذا كانت الحضارة هي النتاج المادي والفكري المتراكم لأمة من الأمم، فإن الفلسفة هي الروح الناظمة لهذا النتاج، والبوصلة التي توجه طاقاته. إن كل حضارة عظيمة، سواء كانت يونانية، أو إسلامية، أو غربية حديثة، قامت على أساس من التفكير الفلسفي العميق الذي حاول الإجابة على الأسئلة الكبرى حول الوجود، والمعرفة، والقيم. إن تجاهل هذا الدور التأسيسي للفلسفة هو تجاهل للمنطق الإبستمولوجي الذي يحكم تطور الحضارات.

2. الفلسفة كإطار معرفي ومنهجي للحضارة

تتجلى العلاقة بين الفلسفة والحضارة في كون الفلسفة هي التي توفر النموذج المعرفي الذي تستند إليه الحضارة في بناء منظومتها، هذا النموذج المعرفي هو بمثابة الفلسفة الحاكمة التي تحدد أولويات المجتمع، وتوجه مساره العلمي والاجتماعي.

تحديد الإشكاليات: تنشأ التساؤلات الفلسفية غالبًا من القضايا والهموم التي تفرزها حقبة حضارية معينة، فتعكس الفلسفة بذلك مرآة لحالة الحضارة التي وُلدت فيها.